منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية

المؤلف: **الطيب برغوث**

الناشر: **المعهد العالمي للفكر الإسلامي**، سلسلة الرسائل الجامعية (17)، الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م (530 صفحة).

محسن محمد صالح*

تقديم

يذكر المؤلف أن السبب الرئيس الذي دفعه للاهتمام بالموضوع، هو الإجابة على التساؤل المتعلق بكيفية المحافظة على منجزات العمل وحماية إطاره المرجعي بصفة عامة، باعتبار ذلك مشكلة جوهرية من مشكلات البناء الحضاري.

أما لماذا اختار هذا العنوان: "**منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**"، فبسبب الطابع "النموذجي الفذ" الذي تكتسبه الحركة النبوية المعصومة بالنسبة لغيرها من التجارب البشرية الأخرى، والسعي إلى لفت الأنظار إلى الاتِّباع الأصوب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والتأسي الأمثل به..." وهو ما يلزم دعاة المشروع الإسلامي بالعمل على الارتقاء بفهمهم وأدائهم الرسالي."...

ويرى المؤلف أنه رغم التعدد الخصب لزوايا رؤية السيرة النبوية، فإن العناية "بالمنهج" ظلت قليلة، مما دفعه إلى محاولة تقديم قراءة "للحركة النبوية" في اتجاه البحث عن هذا الموضوع (43-46).

* دكتوراه في التاريخ الحديث من جامعة الخرطوم 1993, أستاذ مساعد في قسم التاريخ, الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

والمؤلف لا يخفي أن انشغاله بهموم العمل الإسلامي المعاصر، ومحاولة الوصول إلى منهجية سليمة، تضمن عدم تسرب الخلل إلى مضمونه المرجعي، وحمايته من التشويه، والتحريف، والاختزال في كل مراحل الطريق، وضمان روح الاستمرارية، والمحافظة على المنجزات، واستثمارها بفاعلية... كل هذا جعله يقدم على دراسة هذا النموذج التطبيقي الفذ الذي تكمن من تجاوز هذه "الإشكالية الكبرى". وتبدو واضحة روح المؤلف الحريصة الحادبة، المستلهمة للدروس والعبر، التي تسعى لتشكيل رؤية منهجية من خلال الدراسة، حيث يمكن الاستفادة منها في الواقع المعاصر.

غير أننا لا نجد جواباً لتساؤل يلح علينا وهو لماذا المرحلة المكية فقط، وبالذات؟ ولماذا لم يقم المؤلف، سعياً إلى تكامل الرؤية والمنهج، بدراسة المرحلة المدنية مع المرحلة المكية؟ وبطريقة أخرى، هل تكفي المرحلة المكية لاستخراج منهجية نبوية واضحة متكاملة في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها؟ أم أن هذه المنهجية نفسها إذا اقتصرت على مرحلة معينة فتكون مجتزأة من صورة أكبر وأوسع، مما قد يصيبها بنقص أو قصور؟

والمسلمون المهتمون بالعمل الإسلامي لن يقفوا في محاولة الاقتداء والتأسي واستلهام العبر على مرحلة دون أخرى، ولعلنا نجد الإجابة على سؤالنا في أن تضمين المرحلة المدنية قد يطيل البحث ويضاعف حجمه (الكبير أصلا؟)، ولكن تبقى هذه الإجابة غير كافية إذا ما عرفنا أن مقدمات الرسالة وتمهيداتها "والراعي حول الحمى" أخذ من حجم الكتاب البالغ (350) صفحة، حوالي 268 صفحة، أي أكثر بقليل من نصف الكتاب، ولو أن الباحث اختصر هذه المقدمات لاتسع المجال للمرحلة المدنية ولأمكننا الاطلاع على منهجية متكاملة على يد باحث جاد مثل **الطيب برغوث**. وقد نجد إجابة أخرى على تساؤلنا في أن المرحلة المكية تمثل مرحلة "استضعاف" أو مرحلة ما قبل الدولة الإسلامية، وهي مرحلة مشابهة لما يعانيه المسلمون اليوم، وبالتالي يحتاجون إلى وعيها ومدارستها بصورة أكثر تركيزاً.

ولكن الدعوة في المرحلة المدنية عانت من حالات استضعاف كما وصف الله سبحانه وتعالى حال المسلمين في غزوة الخندق فقال: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب:10)، وعانت من الهزيمة في "أحد" قبل ذلك. وعانت بشكل عام من حروب الكافرين، وكيد المنافقين ومؤامرات يهود المدينة وخيبر... واستطاعت الدولة

الإسلامية النمو بمجاهدات منهجية، واستراتيجيات دعوية جهادية، مكنتها من تجاوز مرحلتها الجنينية إلى تحقيق وحدة إسلامية لكل جزيرة العرب؛ وهي أمور من أشد ما يحتاج إليها المسلمون في واقعنا المعاصر.

قسم المؤلف بحثه إلى ثلاثة أبواب، غير أنه قدم لها تمهيداً شرح فيه المفاهيم الأساسية للدراسة مثل مفاهيم: الدعوة، والمنهج، والحماية، والمنجزات، والمحافظة. ويهمنا هنا أن نشير إلى ما يقصده بالمنهج النبوي وهو "الكيفيات العملية المنظمة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض بها الإسلام على الناس، ويواجه بها مشكلات الواقع والدعوة، ويحرك بوساطتها الأحداث من حوله بما يضمن حماية محتوى الرسالة لدعوته، ويحافظ على منجزاتها، ويحقق أهدافها في الخلق".

واستخدام مصطلح "المنهج النبوي" هو استخدام حديث شاع كما يذكر الدكتور طه جابر العلواني في تصديره القيم للكتاب في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن للدلالة من بعض الفئات الإسلامية على وضوح طريقتها في العمل وحجيته وارتباطه بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وتأكيد حتمية نجاحها ما دامت تنهج المنهج نفسه (ص 27)، ويضيف العلواني: إن استخدام المنهج هنا هو استخدام للمعنى اللغوي بمعنى السبيل أو الطريق، وليس المعنى الاصطلاحي حيث فسر ابن عباس (ي الله عنهما) المنهج بالسنة النبوي بجملتها و"الشريعة" بالقرآن في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ (المائدة: 48).

يدرس المؤلف في الباب الأول (ص 77-153) **غاية الدعوة الإسلامية وخصائصها المبدئية الكبرى،** وهو ينقسم إلى فصلين. يدرس الفصل الأول: غاية الدعوة الإسلامية وآفاقها الرسالية الكبرى (ص 77-114)، ويشير الباحث إلى عناية الإسلام بالوجود الإنساني، وأن غاية الدعوة الإسلامية على مستوى عالم الشهادة هي "تمكين الإنسان من تحقيق مستوى استخلافي راق وفق ما تتيحه له ظروفه وإمكاناته في عصره" (ص 80)، ويشير إلى عناية الإسلام بالمصير النهائي للإنسان في الآخرة والاهتمام بوراثة الجنة بوصفها غاية نهائية للوجود الإنساني. ويتحدث المؤلف كذلك عن عناية الإسلام بالاستخلاف هدفاً استراتيجياً، يحدد مفهوم الاستخلاف، وأبعاده الكبرى المتمثلة في الترقي المعرفي، والترقي الروحي، والترقي الأخلاقي، والترقي العمراني، ومنهج الاستخلاف في السعي لتحقيق هذه الأبعاد بصفة مستمرة تمكن كل جيل من تقديم عطائه الحضاري.

أما الفصل الثاني (115-153)، فيدرس: الخصائص الكبرى للدعوة الإسلامية ويلخصها في خمس خصائص:

1- النزعة العلمية، 2- الصبغة التوحيدية، 3- الطبيعة الشمولية، 4- النزعة الواقعية، 5- التوجه العالمي.

ولا ندري هنا ما مدى دقة استخدام مصطلح: "نزعة" في التعبير عن خصائص الدعوة الإسلامية؟ وقد تعمد المؤلف أن يقدم في ذكره للخصائص النزعة العلمية على الصبغة التوحيدية، رغم أنه من المعروف أن الخاصية الكبرى المتعارف عليها بين العلماء والدارسين هي "التوحيد"، وهو اللفظ الذي يعرف به الإسلام عادة، والشهادة لله بالوحدانية هي شعار الإسلام، والمدخل الأول إليه. ويدافع المؤلف عن رأيه لاعتقاده بأن العلم بمفهومه الإسلامي الشامل للسنن الدينية والطبيعية أو الكونية العامة، هو المدخل الطبيعي الضروري لأي اعتقاد أو إيمان سليم وعمل صحيح صالح من شأنه أن يحقق مستوى لا بأس به من عمارة الأرض. ولكن، هل يمكن قبول هذا المنطق؟ فهل نقدم الوضوء -وهو شرط الصلاة- على الصلاة نفسها؟ إن التقديم هنا "فني" يلزم الشيء، ولكنه لا يسبقه أهمية ومقداراً.

ويدرس في الباب الثاني (ص157-268)، **طبيعة المرحلة المكية وأهداف الدعوة فيها**. وهي ينقسم إلى ثلاثة فصول. الفصل الأول (ص157-191) بيئة الدعوة في المرحة المكية، حيث يشير الباحث إلى وضعية عالم ما قبل الإسلام فكرياً، وعقدياً، واجتماعياً، وسياسياً؛ ويدرس الفصل الثاني (193-235) التكليف الرسالي للنبي صلى الله عليه وسلم وبداية الدعوة. أما الفصل الثالث (ص 237-268) فيدرس: أهداف الدعوة في المرحلة المكية ويلخصها في بناء المنظومتين العقدية والفكرية، وإرساء أسس بناء المنظومة الاجتماعية، والإعداد لبناء الدولة.

وهكذا علينا أن نسير في دروب وثنايا 268 صفحة أو (243 صفحة) إذا حذفنا تصدير **د. العلواني** قبل أن نصل "لاهثين" إلى ما وافق الباحث نفسه وقرر أنه "صلب الموضوع" (ص 273)، وهو الباب الثالث (269-449)، الذي يحمل عنوان: **التحديات التي واجهتها الدعوة في الفترة المكية، ومنهج مواجهتها**. وقد قسم الباحث العهد المكي إلى ثلاث مراحل توزعت على ثلاثة فصول.

درس في الفصل الأول من الباب الثالث (ص275-317) مشكلات الدعوة في المرحلة التأسيسية الأولى ومنهج مواجهتها. وقد حدد مدة هذه المرحلة بثلاث سنوات منذ 610م إلى نهاية السنة الثالثة للبعثة، أما الإطار المكاني فقد اقتصر التركيز فيه على الدائرة المكية أو القرشية. ولاحظ المؤلف أن هذه المرحلة لم تكن سرية مطلقة. أما أهداف الدعوة في هذه المرحلة فكانت **بناء القاعدة** الجهادية أو الطليعة بحيث تكون صورة نموذجية حية للإسلام. أما المشكلات التي واجهتها الدعوة فتلخصت في مشكلة بناء النواة الجهادية الأولى للدعوة، وكيفية تحديد الأشخاص ودعوتهم ومتابعتهم وتكوينهم، والتوفيق بين ممارسات الشعائر وعدم استفزاز قريش. ثم مشكلة المحافظة على النواة وحمايتها.

ويرى الباحث أن خطوات النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة هذه المشكلات كانت مضبوطة منسقة مدروسة لا مكان فيها للعفوية والارتجال وسوء التقدير. ولمواجهة المشكلات اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب الاتصال الفردي الانتقائي القائم على المعرفة الشخصية لقابليات الأفراد ومدى استعدادهم للتجاوب. وتمكنت قيادة الدعوة التي شكلها صلى الله عليه وسلم من تمثيل المجتمع المكي كله. فقد مثلت بطون قريش كلها كما مثلت طبقات المجتمع. فتحقق في هذه المرحلة إسلام واحد وثلاثين رجلاً من قريش وأبنائها، وأربعة عشر رجلاً من الموالي والحلفاء، واثنتي عشرة امرأة موزعة على سبعة بطون، وثلاثة أفراد من قبائل أخرى. وواجه عليه الصلاة والسلام مشكلة الاستيعاب التربوي للأفراد من خلال التربية الفكرية، والروحية، والسلوكية، واستخدام بيته وبيوت الصحابة وشعاب مكة محاضن للتربية، أما مشكلة حماية هذه "الطليعة الجهادية" فواجهها من خلال إعطاء الأولوية لبناء القدرات الذاتية للدعوة، وتبني سياسة تفادي المواجهة المبكرة مع المتجمع، وتحقيق الانضباط الأمني والانضباط الاجتماعي، والسعي لتأخير المواجهة مع الزعامة الجاهلية.

أما الفصل الثاني (ص 319-383) فتحدث فيه عن تحديات المرحلة التأسيسية الثانية ومنهج مواجهتها. وحدد زمن هذه المرحلة القرشية ومحيطها القريب. وتحددت أهداف هذه المرحلة في مواصلة بناء القاعدة الجهادية، وفي إنجاز المرحلة الأولى من انفتاح الدعوة على المجتمع.

أما التحديات فقد قسمها المؤلف إلى ثلاثة مستويات، الأول: **مستوى الدعوة وقيادتها** وتلخص في النيل من مصداقية الدعوة والداعية، واتهامه بالشعر والجنون والسحر... إلخ. ومحاولة إسقاط حماية أبي طالب وبني هاشم عنه، والسعي لاحتواء الدعوة من خلال العروض المغرية بالملك والمال والشرف والزواج...، ومحاولة التهوين من أمر الدعوة بتقديم أسئلة تعجيزية، وتصعيد وتائر الاضطهاد والإيذاء، ثم في محاولة خنق الدعوة وأهدافها والمحافظة على منجزاتها من التبديد والهدر والصمود في وجه محاولات الاحتواء والضغوط والمعاناة. وتعاملت القيادة بمرونة مع معطيات الواقع بما يضمن حماية الدعوة والسير قدماً نحو الأهداف المنشودة. وهي مرونة منضبطة وعت سلطان القبيلة وعاداتها واستفادت منه. كما استفادت قيادة الدعوة من تناقضات القوى المضادة. واستمرت على ثبات سيرتها وانسجامها مع أطروحات الدعوة، وحرصت على ضمان استمراريتها.

أما المستوى الثاني فهو خاص بقاعدة الدعوة: وكانت أهم التحديات الدخول في صراع غير متكافئ مع القوى المضادة، ومشكلة تأثير عنف المواجهة وطول أمدها على ثبات الأتباع. وقد واجه الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الصراع غير المتكافئ مع القوى المضادة، بالسعي لإبعاد أتباعه عن جو الصراع، وفي توطينهم الروحي على الانضباط النفسي. وواجه المشكلة الثانية من خلال تدعيم الجبهة الداخلية، وإعطاء الأمل للأتباع والمرونة في مواجهة متاعب أصحابه.

وكان المستوى الثالث هو التحديات الخاصة بقاعدة المجتمع: وتمثل في الصراع مع قريش على القادة الاجتماعية. وقد وطن عليه السلام نفسه في مواجهة هذا التحدي على طول النفس، وضبط الأعصاب، ومواصلة الاحتكاك والدعوة والدفع بالتي هي أحسن.

وحققت الدعوة منجزات هامة في المرحلة الثانية، تمثلت في زيادة أعداد المسلمين، وفي خلخلة النظام الاجتماعي الجاهلي.

وقد درس الفصل الثالث: **تحديات المرحلة التأسيسية الثالثة ومنهج مواجهتها** (ص 385-449). أما زمن هذه المرحلة فهو ثلاث سنوات من وفاة أبي طالب وحتى الهجرة إلى المدينة المنورة. وفي هذه المرحلة

توسعت دائرة الاتصال والدعوة إلى كل من يمكن أن يتصل به من قبائل العرب. وتمثلت الأهداف: حسبما يرى الباحث في ثلاثة أمور:

1- مواصلة بناء القاعدة الجهادية.

2- واصلة الانفتاح على المجتمع.

3- البحث عن موقع جديد للانطلاق.

أما التحديات التي واجهت قيادة الدعوة فتمثلت أيضاً في ثلاث نقاط، أولها: فقدان الحماية وتصاعد المواجهة بعد وفاة أبي طالب، وثانيها: مخاطر استدراج الدعوة للتنازل، وثالثها: محاولة التصفية الجسدية. وتلخص سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهتها بالبحث عن سند اجتماعي جديد للدعوة، وفي الاستفادة من قوانين المجتمع وأعرافه في حماية قيادة الدعوة، وعدم الاستنكاف من الإفادة من خبرات غيره، وفي الاستعصاء على المساواة والاستدراج، وفي الإحاطة بالخريطة النفسية والاجتماعية لبيئة الدعوة، وفي المبدئية العالية.

وتمثلت التحديات المتعلقة بقادة الدعوة في اشتداد عنف المواجهة لأتباع الدعوة، وفي مشكلة تفرق قاعدة الدعوة وضعف الصلة بها، خصوصاً بعد هجرة بعض الصحابة واستقرارهم في الحبشة.

أما سبل مواجهة هذه المشكلات فتمثلت في توطين قادة الدعوة على تحمل تبعات البناء، وطمأنة الأتباع على المستقبل، وتمكينهم من الاستفادة من أعراف المجتمع وتقاليده، ومحاولة الحد من ضغوط القوى المضادة من خلال مكانة أتباعه. ولمواجهة مشكلة تفرق قادة الدعوة فقد عني صلى الله عليه وسلم بتجميع هذه القاعدة وتكوينها، والعمل على دعم "التنظيم السياسي" له بإشراك الجماعة باختيار أفضلها للقيام بشؤونها، وحرية تبادل الرأي، وتحديد الصلاحيات وضبط المسؤوليات بدقة، والإشراف والمتابعة لضمان فعلية الإنجاز في العمل.

وتلخصت التحديات المتعلقة بقادة المجتمع في محاولة قريش لتسميم المجتمع وتعبئته ضد الدعوة. وقد عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من خلال الاتصال المكثف بهذه القاعدة وفتح آفاق الحياة أمام

الناس، وشعور الناس بالعمق الإنساني الكبير في شخصه صلى الله عليه وسلم وعنايته صلى الله عليه وسلم الخاصة بالعلاقات الإنسانية.

ومن خلال هذه المرحلة تمكن صلى الله عليه وسلم من بناء جماعة نوعية قوية متعددة الفئات والطبقات. وتوسع أمر الدعوة واستحوذ على اهتمام الناس. وتمكن من إيجاد موقع مناسب للانطلاق في بناء الدولة.

وبعد الانتهاء من عرض قضايا الباب الثالث أفرد المؤلف خاتمة حول **نتائج الدراسة وآفاق الإفادة منها اليوم**. فهو يرى أن حماية الفكرة والمشروع من عوامل التحريف والاختزال والتشويه والمحافظة على المنجزات بأقصى فعالية هي من مقاصد الإسلام الكبرى. ويحدد الباحث منجزات الدعوة في المرحلة المكية كما يأتي:

– على مستوى بناء المنظومة العقدية: نجحت في هدم بنيان الميراث العقدي للمجتمع الجاهلي، وبناء جيل يحمل رسالة للعالمين.

– على مستوى بناء المنظومة الفكرية: خلخلت الأوضاع الفكرية السائدة وبنت ذهنية جديدة قائمة على التفكير الموضوعي المنطقي.

– على مستوى إرساء منظومة اجتماعية جديدة: نجحت في إرساء أسس جديدة تضمن قيام حياة اجتماعية متوازنة، وتحقق الكرامة الإنسانية.

– على مستوى شروط الانطلاق في بناء الدولة: نجحت في بناء قاعدة بدأت انطلاقتها إلى المدينة المنورة.

– على مستوى تحقيق انفتاح الدعوة على المجتمع نجحت في إبلاغ صوت الدعوة إلى بلاد العرب.

ويحدد الباحث موقع هذه المنجزات من الأهداف السياقية (الاستراتيجية) الكبرى للدعوة عموماً، فيرى أن المرحلة المكية مرحلة وسطية أساسية لتهيئة الشروط الموضوعية الكفيلة لإنجاح النموذجية الأولى للخلافة الإنسانية.

أما النتائج التي توصل إليها الباحث على مستوى المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، فيرى أن النجاح الذي حققته الدعوة يعود إلى المنهج الذي اعتمده صلى الله عليه وسلم في عملية الهدم والبناء، أما المعالم الرئيسة الكبرى وراء هذا النجاح فهي:

1- **المبدئية**: بالتزامه صلى الله عليه وسلم في سلوكه، ومواقفه، وعلاقاته بمقررات الدعوة وثوابتها.

2- **الواقعية**: بالتعامل الموضوعي مع الواقع الإنساني في أبعاده الفطرية الثابتة، وما يطرأ عليها من أوضاع وملابسات لتكييفه تدريجياً مع سنن الله في الآفاق والأنفس والكتاب، وترقيته إلى المستوى الاستخلافي الممكن.

3- **الفعالية**: بالقدرة على الاستفادة القصوى من الظروف والإمكانات المتاحة.

4- **الاستمرارية**: بالاندفاع المنهجي المتواصل نحو الهدف، مهما طال أمد التحديات.

5- **استراتيجية الإحسان**: باتسام علاقته صلى الله عليه وسلم بغيرها من الناس بالروحية الأخلاقية العالية، بما فيها من رأفة، وشفقة، ورحمة، بغرض هدايتهم إلى الإسلام.

6- **الاستعانة**: بطلب المعونة من الله سبحانه بعد استفراغ الجهد.

ويرى الباحث أنه على مستوى آفاق الإفادة من المنهج في واقعنا المعاصر، فإن على القائمين على العمل الإسلامي الاستفادة من المنهج النبوي، وفي آفاقه "السننية" الكبرى، وخطواته الكلية الثابتة، التي تمثل نتائج الدراسة أهم مفاصله الأساسية. ويؤكد الباحث أن النقاط الست المشار إليها أعلاه هي الضمانات الأساسية التي تتيح للعمل الإسلامي حركة أصيلة قوية.

وأخيراً قام الباحث بتحديد شكل الاستفادة المعاصرة، من التجربة النبوية وإمكاناتها، وحصرها في خطوط، وموجهات عامة، ومنارات يهتدى بها في عمل الدعوة ومجاهداتها. وقد يقع البعض في محاولة

"استنساخ" التجارب السابقة، وإسقاطها بحذافيرها على واقعنا المعاصر. فيجدد لنفسه "مرحلة مكية" أو ما شابه ذلك، دون أن يراعي اختلاف الظروف والمراحل وطبيعة الحياة وتعقيدات الواقع وتشابكاته محلياً، وإسلامياً، ودولياً. وعندما ظهرت إحدى الحركات الإسلامية في الخمسينيات حمّلت غيرها مسؤولية الإخفاق لأنها لم تنجح في الوصول إلى الدولة في ثلاثة عشر عاماً (المرحلة المكية)، وأعلنت أنه ستقوم هي بتحقيق ذلك. وقد فقدت هذه الحركة الكثير من مصداقيتها عندما أخفقت في الوصول إلى أهدافها. ولم تصل بعد إلى ما تريد حتى الآن.

إن محاولة "استنساخ النموذج" تحتمل إمكانية الوقوع في أخطاء كبيرة، فمن يمثل في مجتمعات المسلمين اليوم الفئة المؤمنة؟ ومن يمثل الفئة الكافرة؟ وكيف يمكن الاستفادة من العصبية القبلية الكافرة، ومن هو "أبو طالب" الدعوة في الواقع المعاصر؟ إن الرؤى والمنهج الذي اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم من الواجب استلهامه في الواقع المعاصر، أما الوسائل والأساليب فهي تفيد المشروعية لكنها لا تستلزم التكرار بالضرورة، كما أن الثمرات التي تحققت على مدى زمني معين، لا تستلزم التحقق في نفس المدى الزمني في الواقع المعاصر.

وتبقى مجموعة من النقاط نود أن نشير إليها في ختام قراءتنا للكتاب:

1- نجح الكاتب في تقديم رؤية موضوعية شاملة للدراسة وفي استخلاص نتائج وموجهات عامة مفيدة.

2- يقدر للباحث جهده الكبير في جمع مادته العلمية وكتابة البحث بشكل مرتب متسلسل الأفكار، وفي الإفادة الطيبة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وفي استخدام المصادر الأولية والعودة إلى كتب التراث. كما يحمد له استفادته الجيدة من الكتب الحديثة والمعاصرة مما كتب في السيرة والحركة وفقه الدعوة. ولكن يلاحظ عليه عدم استخدامه لأي من المراجع الأجنبية بلغاتها الأصلية على المستوى العام للبحث، وهو أمر أكثر فائدة من الاعتماد على ترجماتها العربية، خاصة إذا أُريد الردُّ على آراء المستشرقين وغيرهم.

3- الجانب البشري في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اهتم به الباحث يحتاج إلى وقفة. فقد ركز الباحث على "منهج النبي صلى الله عليه وسلم "و"خطته" و"أهدافه"، وأن كان "يخطو خطوات مضبوطة، منسقة، مدروسة، لا مكان للعفوية فيها، والارتجال وسوء التقدير". وإذا كنا نوافقه على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خير البشر وقدوتهم، والمنار الذي يُهتدى بخطواته، إلا أننا نلحظ في هذه الدراسة أنه جرى التركيز على هذا الجانب دون أن يعطي الجانب "الرباني" حقه الكامل. فلم يجر التركيز بالدرجة نفسها على توجيه الله سبحانه وتعالى المباشر للدعوة، وعلى رعايته لها، وحمايته لرسوله صلى الله عليه وسلم من الزلل ومن الأعداء وحمايته في شخصه صلى الله عليه وسلم كاملاً، وحتى تتضح النقطة أكثر، فلو كان عنوان الكتاب مثلاً "المنهج الرباني في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية"، هل كان سيتغير محتوى المادة كثيراً؟!

إن عدم التركيز على هذا الجانب، جعلنا لا نرى تركيزاً على قصة "عبس وتولى..." مثلاً، ولا ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (القصص: 56)، وهي من أمثلة الموجِّهات الربانية التي كانت تتنزل إليه في سير دعوته.

4- مسألة القيام بتقسيم المراحل، وتحديد الأهداف لكل مرحلة، وكيفية مواجهة التحديات... إلخ، يخشى ألا تفهم في إطارها الصحيح. فتقسيم المراحل وتحديد الأهداف المذكورة في الكتاب هو ما اجتهد الكاتب في الوصول إليه من خلال دراسته للعهد المكي. وهي لا تعني بالضرورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قسم المراحل وحدد أهداف كل مرحلة منذ بداية الدعوة في خطة واضحة وبرنامج معين. فلم يقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً في خطة ما أنه ستحدث في السنة العشرة انطلاقة لبناء الدولة خارج مكة...، وإنما كان على استعداد للقيام بهذا الأمر قبل ذلك لو أن أهل مكة استجابوا لدعوته. ولذلك يجب ألا يغيب عنّا في غمرة التركيز على المنهجية حقيقة المجاهدات التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم استجابة للتحديات في وقتها، واستفادة من الفرص الطارئة. بل إن التخطيط واستفراغ الجهد لا يعنيان

بالضرورة النجاح كما حدث في عدم إسلام **أبي طالب**، وفي عدم استجابة أهل ثقيف للدعوة. وهذا أمر مهم في واقع الدعوة بعد أن أحسنوا التخطيط والعمل، إذ في النهاية يقدر الله سبحانه ما يشاء. ولذلك أحسن المؤلف عندما أشار إلى الاستعانة بالله والتوكل عليه بعد استفراغ الجهد.

5- مصطلح الطليعة "الجهادية" الذي استخدمه الباحث لوصف الذين استجابوا للدعوة في المرحلة المكية، يستحق بعض المناقشة. ولربما كان أقرب إلى الدقة في وصف هذه الفئة، في تلك الفترة المكية، بـ "الطليعة المؤمنة" التي تشكلت وترقت وصلب عودها لتشكل بعد ذلك الطليعة "الجهادية".

6- وفضلاً عما ذكرنا من قبل حول الحجم الكبير للمقدمات والتمهيدات التي أخذت بابين كاملين من ثلاثة، فإن الباحث وقع في التكرار في مواقع عديدة، فعلى سبيل المثال ذكر قصة الحمية العصبية لأبي لهب، بعد وفاة أبي طالب في (ص398)، ثم كررها في (ص 414) في أكثر من نصف صفحة في كل مرة. وفي الإشارة إلى نتائج دراسته على مستوى المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها ذكر المعالم الرئيسة للمنهج في ص (436-417) ثم أعاد نقاطها في (ص 471-472)، ثم أعادها مرة ثالثة في (ص474-475).

وعلى أية حال، فلا تنقص هذه الملاحظات من قيمة الجهد الذي بذله الباحث، **ولا من** النتائج التي وصل إليها، ولا من أهمية اطلاع المهتمين بأمر الأمة الإسلامية لتحقيق نهضتها المعاصرة، على الكتاب وخصوصاً الفصل الثالث ونتائج الدراسة.